

## المتشابه والمحكم في القرآن الكريم (بحث في دلالة الألفاظ القرآنية)

د. حسن عبد الغني الأسدي  
جامعة كربلاء – كلية التربية

### خلاصة البحث ونتائجه:

اعتمد الباحث رؤية منهجية جديدة سعى لتطبيقها في المجال البحث الدلالي في القرآن الكريم تستند هذه الرؤية على النظر الى القرآن الكريم بوصفه مدونة إلهية مستغنية عن غيرها في بيان معانيها، أو دلالة ألفاظها وذلك ما أبرزته طائفة من الآيات والأحاديث التي تدل على أن القرآن يفسر بعضه بعضاً. وذهب بنا ذلك الى امكان تطبيق منهجية للقراءة والتحليل هي (غلق المدونة) ومحاولة السعي لوضع المنهج الذي عملنا على طرحه في بعض بحثنا وهو: (منهج الدلالة القرآنية للألفاظ) موضع التطبيق؛ وبخاصة في الكشف عن دلالة هذه الألفاظ أعني: محكمات وأحكام ومتشابهات ومتشابهات) والتي شغل البحث عن دلالتها مساحة واسعة في كتب التفسير وكتب علوم القرآن. وقد توصل البحث إلى النتائج الآتية:

- (1) عمل البحث عبر المنهج الجديد، وغلق المدونة على اظهار الأثر المهم للجانب اللغوي، وبخاصة الجانب الدلالي للألفاظ. وإن للسياق اللفظي (اللغوي) أثراً فاعلاً في الكشف عن دلالة اللفظة؛ إذ هو السياق الوحيد الذي يظهر في المدونة الإلهية (القرآن). ولا يمكن في ضوء ذلك الأخذ بسياق الحال والمقام (أسباب النزول)، إلا في سياق تعضد ما يتوصل إليه عبر السياق اللفظي.
- (2) كل ما استعمل من مادة (شبه) في القرآن الكريم جاء بدلالة المشابهة في الصورة والتكوين الخارجي؛ ولم يستعمل بدلالة الالتباس.
- (3) الدلالة القرآنية للفظ (متشابه) هي: التشابه الكائن بين أقسام الشيء الواحد، أو بين مكوناته. وما وُصف بهذه اللفظة فهو يشتمل على تعدد في داخله، كما في وصف كتاب بـ (متشابه)، ووصف آيات بـ (متشابهات). فإن هذا الكتاب ذو آيات يشبه بعضها بعضاً في لفظها، وصورتها الخارجية المدركة بالبصر. وكذا الحال في متشابهات.
- (4) لم يكن قسماً الآيات: محكمات ومتشابهات في الآية (7) من آل عمران خاصة بآيات القرآن الكريم، بل يخص قسماً من آيات (الكتاب)، وهو كتاب عنده تعالى ذكر فيه تفصيل كل شيء. وقد أطلع الله تعالى نبيه الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) على ما فيه.
- (5) إن تقسيم آيات الكتاب على القسمين الأنفي الذكر لا يشمل كل آيات الكتاب أو مكوناته؛ بل قسماً منه ضم هذين النوعين من الآيات؛ لأن وجود (منه) دال في موضعه على وجود غيرها وهو ما لم يلتفت إليه المفسرون.
- (6) أشارت الآية (٢٢) من سورة الزمر إلى كتاب إلهي ذي نمط خاص؛ آياته يشبه بعضها بعضاً لوصفه بـ (متشابه) وقد رتب آياته على هيئة تجمعات ثنائية لوصفه بـ (مثنائي). وهذا الوصف الأخير يجعله ضمن الكتب أو الصحف السبعة التي ذكرت في الآية (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمُنَافِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمِ) (الحجر 87). ومعلوم أن ذلك يخالف ما ذهب إليه المفسرون من دلالة السبع المثنائي التي اختلفوا فيها كثيراً.
- (7) تسلك المحكمات مسلك المفاتيح التي بها يمكن تغيير ما نزل من حوادث عامة أو خاصة. وتفرّد الله (عز وجل) بمعرفتها وكانت تسميتها بـ (أم الكتاب) لدلالة الهيمنة والتحكم ولا يدرك سرها، وما هيته إلا هو قال تعالى: (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِي عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) (الرعد 39)، وتظهر هذه الهيمنة والتحكم في استعمال آخر هو (أم القرى). أما المتشابهات فأيات الكتاب التي يتشابه بعضها مع بعض، وتبدو في النظم كأنها تختزل تفصيل كل الحوادث في هذا الكون منذ بدايته الى نهايته. ويظهر من ذلك ما جاء بقوله تعالى: (الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ حَبِيرٍ) (هود 1).
- (8) كان سعي الباحث أن يتمسك بما رسم لنفسه من منهج يفسر القرآن بالقرآن؛ وكان المدخل الى ذلك مرتكزا على ألفاظ القرآن؛ وماتكون من سياق لغوي؛ ولذلك فإن ما أوردته من أحاديث أو أقوال لبعض العلماء والمتقدمين هو من باب الإستزادة والتعضيد ولم يكن من باب التأسيس.

### توطئة: منهج الدلالة القرآنية للألفاظ

أسسنا بحثنا لفهم دلالة الألفاظ القرآنية، وهي الدلالة التي استعملت بها لفظة ما في القرآن الكريم، على مقارنة يتوسم بها طرح معالم منهجية لدلالة الألفاظ من خلال تفسير النص بالنص نفسه وهو ما عرف في التراث التفسيري بتفسير القرآن بالقرآن، وكانت الأحاديث قد أشارت الى خصيصة هذا النص وقدرته على تفسير نفسه بنفسه وتبيين بعضه ببعض. إن تفسير القرآن بالقرآن يمثل نوعاً من فهم النص تتقارب وماعرف من وجهة معاصرة بـ (منهج غلق المدونة)، وهو منهج يتم النظر فيه إلى كتاب ما أو نص ما بوصفه منظومة لغوية دلالية مستقلة لها نظامها التركيبي والدلالي المستقل وهو منهج أشبه ما يكون بالطريقة التي يتبعها عالم الآثار في فهمه لما يقع له من قطع طينية ونقوش على جدران الأبنية من بعض الحضارات الموعلة في القدم، ولا طريق له إلا الإمعان والتأمل في هذه البقايا وأجزائها ليكتشف دلالاتها، ويقدم صورة عن تلك الحضارة التي خلفتها. فكذلك هذا المنهج (منهج غلق المدونة) بالنسبة للباحث اللغوي ستكون وظيفته تجاه النص الكشف عن دلالة مفرداته وتركيباته وكيفية الترابط بين أجزائه ثم مقاصده للخروج بمعلومات لغوية أو غير لغوية مع رفض الآراء المسبقة لفهم النص. (1) يلاحظ في عملنا أن ذكر المعاني المعجمية يأتي لا بوصفها دلالة للفظ في القرآن؛ بل بوصفها معاني أولية تؤسس عليها تلك الدلالة حتماً، ولا يمكن تجاهل دلالاتها فيما بين الرسول (صلى الله عليه وآله) والمرسل إليهم إذ الرسالة نسجت بلغتهم، وذلك هو القانون الإلهي في مخاطبة الأمم كما يظهر من قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (إبراهيم 4)؛ ووصفنا

للمعاني اللغوية بأنها أولية ينبع من رؤية تقوم على النظر في هذه المعاني، أو تعددها للفظ الواحدة كونها وليدة نظرات بالغت في التوسع الدلالي، وخطت الدلالة اللغوية بغيرها. لهذا ينبغي بذل الجهد للوقوف على الدلالة اللغوية التي كان العرب يستعملونها في كلامهم في الحقة التي شهدت نزول الوحي. ونشير أيضاً إلى اهتمام البحث بذكر الاقتراعات اللفظية التي تصاحب اللفظة القرآنية، وتلك هي (السياق اللفظي أو اللغوي) الذي تعمل اللفظة على استدعائه، وذلك لما لتلك الاقتراعات اللفظية (المصاحبات) من أثر في تحديد دلالة اللفظة. الاقتراعات اللفظية متعددة فقد تكون ألفاظاً أو تركيباً معيناً أو بنية صرفية أو أداة رابطة. ويبدو أن ما عرف عند علماء التفسير (تفسير القرآن بالقرآن) لم يكن ذا منهج فاعل في التفسير قديماً أو حديثاً؛ ويعود ذلك إلى أسباب متعددة من أهمها إفتقار التفسير هنا إلى خطوات منهجية ضابطة. إن ما يقوم المفسر به في أولى خطوات تفسيره هي أن يبدأ ببناء تفسيره على فهم دلالة الألفاظ القرآنية. ولعل أبرز أوجه فهم الدلالة هنا هي تتبع استعمال اللفظة في كل مواردها في القرآن الكريم؛ وهي خطوة أولى للكشف عن الدلالة القرآنية للفظ. ولقد حاولت في بحث مستقل وضع معالم لمنهج جديد هو (منهج الدلالة القرآنية للألفاظ) يتأسس على اعتبار القرآن مدونة متكاملة دلاليًا يستطيع المتلقي إدراك معانيها إذا نظر إليها بوصفها وحدة مدونة لها نظامها في صوغ دلالة ألفاظها وآياتها.

### المبحث الأول: المتشابه: الدلالة و ضياع المفهوم الدلالة اللغوية للمتشابه:

تعود لفظة المتشابه إلى المادة اللغوية (شبه)، قال فيها ابن منظور: (( الشَّبه والشَّبه والشَّبه والشَّبه: المثل والجمع أشباه. وأشبه الشيء الشيء: مثله، وفي المثل: من أشبه أباه فما ظلم... )) 2 وقال: (( أشبهت فلاناً وشابهته و أشتبته عليّ وتشابه الشيطان واشتبها أشبه كل واحد منهما صاحبه، وفي التنزيل: مشتبهاً وغير متشابه )) 3 فالمعنى المشترك لاشتقاق هذه المادة هو التشابه والتماثل بين الأشياء من هنا فالمتشابه هو اسم الفاعل من الفعل (تشابه) وتستبطن بنية هذا الاسم المشاركة ما يعني أن المتشابه هو الذي يتشابه مع غيره أو الذي يتشابه أفرادهم بعضهم مع بعض. ومن الفعل أشتبته أخذ اسم الفاعل (مشتبه) وبنية هذا الفعل تستبطن حدوث المشابهة بعد أن لم تكن 4. وجاء في اللسان أيضاً (( المتشابهات: التماثلات، وتشبه فلان بكذا والتشبيه التمثيل )) 5. ويظهر أن هذه الدلالة هي الأولى وتطور منها معنى الالتباس؛ إذ إن الأمور إذا أشبه بعضها بعضاً لم تتميز؛ ولهذا قيل: ((المشتبهات من الأمور: المشكلات، وجاء في حديث حذيفة: ذكر فتنة فقال تشبه مقبلة وتبين مدبرة، قال شمر: معناه ان الفتنة إذا أقبلت شبهت على القوم وأرتهم أنهم على الحق حتى يدخلوا فيها و يركبوا منها ما لا يحل؛ فإذا أدبرت وانقضت بان أمرها، فعلم من دخل فيها انه كان على خطأ. والشبهة: الالتباس. وأمور مشتبهة ومشبهة: مشكلة يشبه بعضها بعضاً... وشبه عليه: خلط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره )) 6. فالنص المتقدم يلح إلى الجهة التي تطورت منها دلالة الالتباس التي ظهرت في بعض اشتقاق هذه مادة (شبه) وذلك مؤسس على المعنى الأول، وهو المشابهة والتماثل، إذ لولا ما حصل من تشابه الأمور بعضها بعضاً لما خلط بينها، ولم يمكن تمييزها. وسيظهر أن القرآن الكريم حافظ على استعمال ألفاظ هذه المادة بالمعنى الأول كما هو؛ إذ لم يرد من ألفاظ القرآن من هذه المادة ومنها لفظاً متشابه ومتشابهات إلا وهو يحمل دلالة المشابهة ولم يرد منها ما حمل دلالة الالتباس.

### تعدد الدلالة الإصطلاحية و ضياع المفهوم:

لقد تعددت الآراء في تحديد دلالة المتشابه في القرآن الكريم، وبخاصة ما أشارت إليه الآية السابعة من سورة آل عمران، وهي قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ) (آل عمران/ ٧). قال الفخر الرازي: ((الناس قد أكثروا من الوجوه في تفسير المحكم والمتشابه، ونحن نذكر الوجه المخلص الذي عليه أكثر المحققين، ثم نذكر عقيبه أقوال الناس فيه)) 7، وأوصل المتنبعون عدد هذه الآراء إلى ستة عشر رأياً 8، وأقترن الكلام عندهم في هذه الآراء بالمحكم بوصفه القسم المقابل للمشابه. وأقترن ذلك أيضاً ببيان رأيهم في دلالة (التأويل). وكانت هذه الألفاظ الثلاثة مداراً للاجتهاد وكأنه لا مشاحة في الإتيان برأي أو أكثر مع فقدان الدليل الذي يخص دلالة ما دون غيرها، فمن ذلك ذهاب بعضهم إلى القول بأن الحروف المقطعة في بدايات بعض السور القرآنية هي الآيات المحكمات والآيات الأخرى متشابهات، و قول بعضهم ان الآيات المنسوخة هي المتشابهة وان الناسخة هي المحكمة، ومن غير الواضح هنا كيف سيتبع من في قلوبهم زيف الآيات المنسوخة لإحداث الفتنة، وطلب تأويلها. ونحنا بعض المفسرين و الباحثين في علوم القرآن إلى القول بان المتشابه ما لا مصداق محدد له في الواقع أما المحكم فما له مصداق واقعي محدد. والتأويل هو وجود ذلك المصداق الواقعي لما أورد من آيات زيادة على ان لكل رأي من الآراء مأخذاً أو أكثر ضد الآراء الأخرى، إلا أن الشائع عند معظم المتأخرين ذهابهم إلى كون المحكم ما أريد به ظاهر اللفظ من الآيات القرآنية، إما المتشابه منها فهو ما أريد به خلاف ظاهره. (9) وهو المعنى المراد بالمعنى الباطن! يرد في هذا الموضوع ما جاء من الآيات في وصف القرآن نفسه بكونه: (أَلَمْ يَكُنْ أَكْثَمَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَضِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) (هود/ ١)، وفي آية أخرى جاء الوصف الذي يفهم منه أن القرآن كله كتاب متشابه وذلك في قوله تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ...) (الزمر/ ٢٣) وبين الآية الأولى التي تقول أنه كله كتاب محكم والثانية التي تقول كله متشابه يأتي قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ...) (آل عمران/ 7) التي تقول إن من الكتاب ما هو محكم ومنه ما هو متشابه، ولعل اللافت هنا أنهم قد قبلوا التناقض في مدلول هذه الآيات من حيث أرادوا أم لم يريدوا؛ وفي سبيل رفع هذا التناقض ذهبوا إلى ما ظنوا أنه المخرج الذي يرفع هذا التناقض فجعلوا الأحكام من جهة، والتشابه من جهة أخرى، وفي هذا الصدد يقول أحد الباحثين ((ويكاد الباحثون في علوم القرآن يتفقون على تعيين معنى كل من الوصفين في استعمالهما الأول الشامل حيث يجدون ان العلاقة التي صحت إطلاق وصف الأحكام على الآيات

القرآنية كلها هي ما في القرآن من إحكام النظم وإتقانه ، وما فيه من التماسك والانسجام في الأفكار والمفاهيم والأنظمة والقوانين . كما يجدون إن العلاقة التي صححت إطلاق وصف المتشابه عليه هي: محض التماثل والتشابه بين بعضه وبعضه الآخر في الأسلوب والهدف، وسلامته من التناقض والتفاوت والاختلاف: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا اختلافًا كثيرًا) (النساء ٨٢/١٠) ويتضح من النص أن ما صححوا به لا يعدو أن يكون رأياً لا يمتلك دليلاً علمياً على هذا التصحيح (الذي يرفع التناقض ! ) . ويبدو لنا أن الذي أوصلهم إلى هذا الموضع أنهم لم يحاولوا معرفة دلالة هذه الألفاظ القرآنية من خلال سياقاتها اللفظية ، ولم يكن لهم شأن في تتبع موارد استعمال هذه الألفاظ في القرآن الكريم ، بل تعاملوا مع كل موضع منها كون ما ورد فيه من لفظ بدلالة وإن ما ورد في الموضع الآخر بدلالة أخرى هذا من جهة و من جهة أخرى لم يفرقوا بين استعمال الفعل (أحكمت) في موضع واستعمال الاسم (محكمات) في موضع آخر. زيادة على أنهم فهموا من وصفي المتشابه والمحكم كونهما متعلقين بالقرآن الكريم ، علماً أن الآيات الثلاثة الأنفة الذكر ليس فيها ذكر للفظ القرآن ، كل ما في الأمر أن مجيء لفظي الكتاب وكتاب دعتهما إلى أن يفهما منهما دلالتهم على القرآن ؛ وهو أمر نرى أن تتبع اللفظة في موارد استعمالها في القرآن هو الذي يبين مدى صحة هذا الفهم من عدمه؛ وذلك ما سيعمل البحث على بيانه على نحو التفصيل لما بين لفظي الكتاب والمتشابه من ترابط .

### المبحث الثاني: الألفاظ القرآنية وغلق المدونة

أشرت فيما سبق إلى أن المفسرين وغيرهم من الباحثين في العلوم القرآنية لم يعطوا لأنفسهم فسحة للكشف عن دلالة الألفاظ القرآنية من مواضع استعمالها في النص المقدس؛ وهو ما أدى إلى ظهور كمٍ من الآراء لا تعبر إلا عن ضياع المفهوم الدلالي الذي أراده القرآن من ألفاظه. ولما كان الإطار المنهجي في الكشف الدلالي في بحثنا هذا يرتكز على (منهج غلق المدونة) فإن تتبع موارد استعمال الألفاظ المشتقة من المادة اللغوية (شبه) في القرآن الكريم سيكون جزءاً مهماً في عملنا مع ملاحظة الاقتراءات اللفظية المصاحبة للفظ الأساس؛ لهذا سيكون تقسيم موضوعات هذا المبحث قائماً على وفق ورود اشتقاقات هذه المادة في النص القرآني وهي كما يأتي:

- ١- استعمال (شبه).
- ٢- استعمال (تشابه).
- ٣- استعمال (تشابهت).
- ٤- استعمال (مشتبه).
- ٥- استعمال (متشابه).
- ٦- استعمال (متشابهات).

فهذه الألفاظ هي التي وردت في القرآن الكريم وبلغ موارد استعمالها اثنا عشر مورداً، جاءت في ستة سور هي سور: (البقرة وآل عمران والنساء والأنعام والرعد والزمر). وفيما يأتي التفصيل في هذه الموارد بحسب الألفاظ الأنفة الذكر :

١- استعمال شبه: جاء استعمال هذا الفعل في سياق نفي ادعاء اليهود قتلهم نبي الله عيسى عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) (النساء/ 157) فالآية بعد أن تنفي ادعاء اليهود قتلهم المسيح (عليه السلام) تستدرك على ذلك بذكر ما أوقعهم في ذلك بقوله (ولكن شبه لهم) فهناك رجل آخر قاموا بقتله ظناً منهم أنه رسول الله عيسى (عليه السلام)؛ وذلك لشبهه نبي الله عيسى وزادت الآية تأكيداً في إن الذي حصل كانوا فيه مختلفين إذ يبدو أن بعضهم لحظ أن من قتلوه ليس هو المسيح بل أنه شبيه به؛ ومن ههنا كان عملهم قائماً على الظن مع تأكيد النفي الإلهي بقوله (وما قتلوه يقيناً) ! وبهذا تظهر دلالة هذا الفعل (أي: شبه) على المشابهة في الصورة والهيئة الخارجية.

٢- استعمال (تشابه) : استعمل هذا الفعل في ثلاثة موارد: أولها في سورة البقرة في قصة بقرة بني إسرائيل التي أمروا بذبحها؛ وكان أول كلامهم لنبي الله موسى (عليه السلام): (قَالُوا اتَّخَذْنَا هُزُؤًا وَطُغْيَانًا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ذَكَرَ الْأَوْصَافِ الَّتِي تُمَيِّزُ الْبَقْرَةَ الْمَطْلُوبَةَ مِنْ غَيْرِهَا، قَالَ تَعَالَى: (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ \* قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شَبِيهَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) (البقرة 70-71) الملاحظ أن اليهود حاولوا المماثلة من جهة أن تمييز أفراد جنس الحيوان يتم خلال صفاته الخارجية كاللون والعمر وطبيعة الأعمال التي تسخر فيها ونحو ذلك . ومن ل10 دون هذه الصفات لا يمكن تمييز أفراد الجنس (البقر)؛ لهذا جاء قولهم (إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا) فلا يستطيعون التفريق بين بقرة وأخرى لتشابههما . وقولهم (الآن جِئْتَ بِالْحَقِّ) هو ذكر الصفات المميزة بين الأفراد الذي يزيل التشابه العام بين الأفراد، ويقطع العنت والمماثلة لهؤلاء وإلا فإن كل طلب من الله ورسوله هو حق بذاته . وجاء استعمال الفعل (تشابه) في إطار المشابهة والتماثل المفترض حدوثهما بين صنفين من الخلق وذلك دحضاً لحجة من اتخذ إليها آخر غير الله تعالى، قال تعالى: (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسُهُمْ نَعْمَ وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (الرعد 16). فدلالة الفعل (تشابه) هي المشابهة والتماثل في الصورة والتكوين الخارجي ووقوع ذلك على نحو المشاركة بين الأفراد فلا يمكن التمييز بين الخلق. وهو فرض نفته الآية للاحتجاج على القائلين بالشركاء. ووردت الكاف في قوله (خَلَقُوا كَخَلْقِهِ) بمنزلة النص على دلالة المشابهة في الفعل. أما المورد الثالث لاستعمال هذا الفعل فجاء في (آل عمران 7) ولم تخرج دلالة الفعل فيه عما ذكر في الموضوعين السابقين . ولنا وقفة مفصلة مع هذه الآية قريباً.

٣- استعمال (تشابهت): جاء الفعل (تشابه) وقد ألحقت به تاء التانيث في مورد واحد وهو قوله تعالى: (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يؤقتون) (البقرة ١١٨). فدلالة الفعل (تشابهت) واضحة في المشابهة والتماثل بين القلوب.

- ٤- استعمال (مشتبه): ذكر هذا اللفظ في مورد واحد وذلك في (الأنعام ٩٩)، جاء في اللسان: ((وأشبهت فلانا وشابته واشتبه علي وتشابه الشيطان واشتبها: أشبه كل واحد منها صاحبه. وفي التنزيل: مشتبهها وغير متشابه)) (11)، وسنقف عند هذه اللفظة قريباً.
- ٥- استعمال (متشابه): ورد هذا الاسم في أربعة موارد قرآنية: أولها في سورة البقرة، وهو قوله تعالى: (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزِقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة ٢٥). إن التشابه بين ثمار الرزقين الرزق في الجنات والرزق من قبلها سيكون ملاحظاً عند هؤلاء، ولهذا قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل؛ فكانت دلالة (متشابه) واضحة في المشابهة والتماثل في الصورة والهيئة الخارجية ويعضد هذا القول في دلالة هذا اللفظة ما جاء عن الإمام السجاد علي بن الحسين (عليه السلام) في دلالة اللفظة في قوله تعالى: (وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا) (البقرة 25) بقوله: ((يشبه بعضه بعضاً بابها كلها خيار، لا ردل فيها. وبأن كل صنف منها في غاية الطيب، واللذة؛ ليس كثمار الدنيا التي بعضها نيء، وبعضها متجاوز لحد النضج والادراك إلى الفساد من حموضة ومرارة، وسائر ضروب المكاره ومتشابهها أيضاً متفقات الألوان مختلفات الطعم)). (12) جاء في اللسان قوله: ((وأما قوله: (وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا) فإن أهل اللغة قالوا معنى متشابهها يشبه بعضه بعضاً في الجودة والحسن. وقال المفسرون: متشابهها يشبه بعضه بعضاً في الصورة ويختلف في الطعم ودليل المفسرين قوله تعالى: (هذا الذي رزقنا من قبل) لأن صورته الصورة الأولى، ولكن اختلاف الطعم مع اتفاق الصورة أبلغ وأغرب عند الخلق)) (13). وجاء عن ابن الأعرابي: ((وشبه إذا ساوى بين شيء وشيء))، وعنه في قوله تعالى: (وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا)، قال: ((ليس من الاشتباه المشكل إنما هو من التشابه الذي هو بمعنى الاستواء)) (14). ومن موارد هذا اللفظ قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ نَبَاتٌ كُلٌّ شَيْءٍ فَاخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًا مُتَرَاكِبًا وَمِمَّنْ النَّخْلُ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأنعام ٩٩). وجاء في السورة نفسها قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلًّا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (الأنعام ١٤١) الملاحظ أن دلالتى اللفظتين (مشتبه ومتشابه) في الآيتين لا تخرج في إطارهما الدلالي العام عن دلالة المشابهة والتماثل التي ظهرت فيما سبق من ألفاظ المادة اللغوية (شبه). ويعني هذا أن (متشابهها) متعلق بالهاء في (به) في (البقرة ٢٥)، وهو يعود على الرزق الذي يؤتي إليهم في الجنات، وهي تبين حال هذا الرزق وتصفه بأن ثماره يشبه بعضها بعضاً لا أن يراد مشابقتها لثمار الدنيا كما تقدم أنفاً. إذاً دلالة متشابه ستكون للشيء يشتمل على التعدد ويشبه بعض أفرادها بعضها الآخر. أما قوله: (مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهًا) (مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهًا) المذكوران في الآيتين من سورة الأنعام فهو مما يخص ثمار الدنيا التي تتعدد مظاهر المشابهة بينها كما تتعدد مظاهر عدم المشابهة فالثمار المذكورة تشترك في تكوينها على شكل تجمع عقودي وفي داخل ثمرتها النوى التي لا تأكل في العادة، وهي مختلفة في طبيعة ثمارها وطوعمها، ونحو ذلك. وإذا كان (متشابه) قد أشير به إلى مجمل هذه الثمار (الرزق) وتشابه أفرادها، كما جاء في (وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا) فإن (مشتبه) اقرب إلى تعلق دلالاته بما بين أفراد الصنف الواحد من مشابهة إذ معلوم أن جنس الرمان أو الزيتون يضم أنواعاً عدة لها ما يميزها ولكنها تبقى متشابهة ضمن الجنس الأكبر. ويتناسب ذلك وافتعال الشبه الذي تدل عليه صيغة (مُفْتَعَل) إذ إن تمايز الأصناف داخل الجنس الواحد يحدث في مرحلة تالية من مراحل النمو، ولولا هذا التمايز (الاختلاف) لما برز التشابه. ومن هنا فإن التشابه لا يعني التماثل التام، والاستواء في كل شيء بل يعني الشبه من جهات كثيرة و الاختلاف في جهة أو أكثر ما يعني أن المتشابه في القرآن الكريم اقرب إلى تكون دلالاته على المشابهة في صورة والتكوين أو الهيئة الخارجية. وهي دلالة يمكن أن تلاحظ في الألفاظ الأخرى التي مضى ذكرها وهي (شبه وتشابه ومشتبه) وستأتي لفظة (متشابهات) قريباً. وبقي لـ (متشابه) مورد واحد سنعرض له في الفقرة الآتية.
- 6- استعمال (متشابهات): هذه اللفظة جمع مؤنث مفرد متشابهة وكذا متشابه ولم يستعمل المفرد المؤنث في القرآن الكريم. ووردت لفظة (متشابهات) مرة واحدة وذلك في وصف قسم من الكتاب، وذلك في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ...) (آل عمران 7) يدل هذا اللفظ على أن هذا القسم من آيات الكتاب يشبه بعضها بعضاً. فهي متشابهات من خلال النظر إلى بعضها نسبة إلى بعضها الآخر؛ لما في صيغة جمع المؤنث من تعدد الأفراد، إذ لم يذكر شيئاً تشابه معه والشيء لا يمكن أن يكون شبيهاً لنفسه إلا إذا كان متعدد. وهو الأمر الذي نلاحظه في وصف كتاب بأنه متشابه؛ وسياقي ذكر الآية فقد وصف الله تعالى هذا الكتاب بـ (متشابه) ما يعني أن الآيات الذي يتضمنها هذا الكتاب كلها يشبه بعضها بعضاً، وواضح قرب هذا الوصف من الوصف المذكور أنفاً أن قسماً من الآيات الكتاب هي متشابهات. وللبحث وقفة مطولة عند هذين اللفظين في المبحث الثاني. نلخص في نهاية هذا المبحث الذي تتبعنا فيه موارد استعمال الألفاظ المأخوذة من مادة (شبه) إلى أن هذا الألفاظ قد وردت في القرآن الكريم بدلالة التشابه ولم يأت منها ما استعمل بدلالة الالتباس. ما يعني أن القرآن الكريم قد أبقى هذه الألفاظ داخل الإطار العام لمعناها اللغوي الأول. ولقد جاء استعمال القرآن بدلالة أخص هي: دلالة المشابهة التي تكون بين أفراد الشيء الواحد أو ما يحكمه. وهو ما ظهر في المواضع الأخرى التي استعملت فيها هذه اللفظة ومن ثم وصف ما نزل الله بأنه (كتاباً متشابهاً) لا يستقيم إلا على ما تعدد في ذاته بكونه ذا أفراد وإن تلك الأفراد يشبه بعضها بعضاً؛ فيكون كله متشابهاً في الصورة (الهيئة الخارجية). وهو الذي يعضده تفسير الإمام السجاد (عليه السلام) لقوله تعالى: ((وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا)) فقد ذهب المفسرون والباحثون في علوم القرآن- كما سبق أن ذكرنا- في فهمهم لاطلاق وصف المحكم على كل الكتاب في آية (هود 1)، ووصفه بأنه كله متشابه في آية أخرى (الزمر 23) إلى أن الجهة التي وصف من خلالها الكتاب فيهما مختلفة؛ فوصف بـ (المتشابه) للتشابه بين أفرادها في الأسلوب والهدف وسلامته من التناقض، ونحو ذلك وهو ما لا دليل لقائله عليه وكذلك الحال في صفة الإحكام التي فهموها من جهة ما في القرآن من إحكام النظم وإتقانه، وما فيه من التماسك والانسجام في الأفكار والمفاهيم والأنظمة والقوانين!.
- إن وصف الكتاب بهذا اللفظ (أعني: متشابه) يظهر في الاستعمال القرآني أن الآيات التي يتضمنها يشبه بعضها بعضاً، وتتحدد جهة الشبه من المشابهة في الصورة والتكوين الخارجي لا ما تقدم من قول المفسرين وأهل علوم القرآن.

### المبحث الثالث: كتاب كله متشابه

إن الوصف الذي قدمته الآية لبعض ما أنزل الله بكونه كتاباً يشبه بعضه بعضاً، وفهم منه المفسرون أن المقصود به كتاب الله القرآن الكريم فيه نظر، لاسيما غير ما نسعى إليه من تحديد دلالة الألفاظ القرآنية من داخل القرآن نفسه؛ وفيما يأتي تفصيل ما ذكرته الآية وهي قوله تعالى: (الله نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) (الزمر: 23) ونرتب النظر هنا على وفق الألفاظ بحسب ورودها في الآية: (أولاً)- أحسن الحديث: وهو أول أوصاف الكتاب المذكور وجاء بعد إسناد نزل إلى الله (عز وجل) وهو إسناد يلح إلى عظيم مكانة هذا الكتاب. وجاء الوصف بـ(أحسن) ليشير إلى أعلى درجات الاتقان لما أضيف إليه؛ وهو لفظة (الحديث)، وهي من الألفاظ القرآنية التي تكرر استعمالها في أكثر من موضع في القرآن الكريم؛ وسيساعدنا هذا الأمر في الوقوف على الدلالة القرآنية لهذه اللفظة. ومن ثم ستكون المفتاح لفهم طبيعة الموضوعات التي اهتم بها هذا الكتاب. وطبيعة الآيات التي تكون منها! أقول استعمال (الحديث) في القرآن الكريم في خمسة موارد أخرى هي:

- (أ) قال تعالى: (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) (الكهف: ٦)
- (ب) قال تعالى: (أَزِفَتِ الْأَرْضُ فَمَا لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ \* أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ \* وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ) (النجم: ٥٧- ٦٠).
- (ج) قال تعالى: (إِنَّهُ لَفَرُّانٌ كَرِيمٌ \* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ \* لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ \* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ \* وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ) (الواقعة: ٧٧- ٨٢).
- (د) قال تعالى: (يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ \* خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُفُهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ \* فَذَرْنِي وَمَنْ يُكْذِبْ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) (القلم: ٤٢- ٤٤).
- (هـ) قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ \* وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ وَفَرًا فَنَسْرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (لقمان: ٦- ٧).

### والتأمل في هذه الموارد يقود إلى النتائج الآتية:

أولاً- اقترن استعمال (هذا الحديث) بطائفة من الألفاظ التي ترسم لنا ظلال لدلالة لفظة الحديث الذي جاء متعلقاً بالفاظ: [تَعْجَبُونَ، وَمُذْهِبُونَ، وَيُكْذِبُ، وَ لَمْ يُؤْمِنُوا] ما يوضح أنه أمر لقي الرفض. ويظهر أن هذا الرفض كان من المسلمين، إذ إن ورد في المورد الأول من الألفاظ ما يبين أنهم كانوا قد آمنوا من قبل بما جاءهم به الرسول (صلى الله عليه وآله) لكنهم رفضوا الإيمان بهذا الأمر وكان الرفض شديد الوطأة على رسول الرحمة؛ فلفظة باخع استعمالت للدلالة على قرب الهلاك أسفاً على هؤلاء الذين لم يؤمنوا بهذا الأمر ولا سيما مع استعمال الفعل هنا (اي: لم يؤمنوا) على حين اختلف الأمر في المورد الآخر لـ(باخع)، وذلك بقوله تعالى: (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (الشعراء: 3) فهذا المورد أقل وطأة على رسول الله؛ فلم يرد في هذا الموضع لفظة أسفاً) كما جاء استعمال الاسم (مؤمنين) ولم يستعمل الفعل.

ثانياً- يبدو أن الأمر المعبر عنه بـ(الحديث) تتعلق دلالاته بالحوادث التي هي جزء من الغيب، مما يحدث في مستقبل الزمان؛ ولعله من ملاحم آخر الزمان! ووراني في هذا القول لفظة الأحاديث التي اقتصر استعمالها في سورة يوسف (عليه السلام) بوصفها مما علم الله تعالى نبيه يوسف الصديق (ع) تأويلها أي: قدرته على إظهار تلك الأحاديث. وهي من اتمام نعمته عليه وعلى آل أبيه يعقوب (عليه السلام) وكان قد أتمها الله تعالى على آباءه قال تعالى: (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (يوسف: 6) وتظهر بوضوح في جوابه لصاحبيه في السجن، فكان جوابه لهما على ما رأى كل منهما في المنام أن عرفهما بحقيقة ما سيحدث له في المستقبل بل قال لهما: (قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْقَاهُ إِلَّا نَبَاتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) (يوسف: 37)؛ مع ملاحظة اقتران الألفاظ: علم وتأويل والأحاديث ومن التبعيضية ببعضها في كل موارد في هذه السورة.

ثالثاً- ويشير المورد (هـ) إلى أن هذا الحديث سيتخذ عند بعض الناس لهواً، وهزواً ولا تكون له المنزلة التي أرادها الله لها كما قد يفهم من دلالة (لهو الحديث) وبخاصة لو أخذنا اللفظتين كل منهما على نحو مستقل عن الأخرى. (15)

رابعاً- الملاحظة البارزة في قوله (أحسن الحديث) تعني أن هذا المذكور هو أرفع درجة وأعلى رتبة من غيره من الأحاديث التي علمها يوسف الصديق (عليه السلام)، كما أنه أرفع درجة مما علم العبد الصالح الذي اصطحب نبي الله موسى (عليه السلام) المذكور في قوله تعالى: (قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) (الكهف: ٧٠) فجاء بالفعل (أحدث) ثم آل الأمر إلى ما ذكره تعالى: (... وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) (الكهف: ٨٢) فذكر (تأويل) أفعاله الثلاثة وهي: خرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار. وهي أفعال قام بها ذلك العبد من علمه بمستقبل الأمور، التي لم يطلع الله تعالى عليه نبيه الكليم موسى (عليه السلام) إذن فإن (أحسن الحديث) يعبر عن أجود تلك الأحاديث أو أجود أمور الغيب التي يطلع الله عليها بعض أوليائه ويمكن أن يكون ذلك الحديث متعلقاً بالوعد للذين آمنوا الوارد في قوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (النور: 55).

(٢)- كتابا: يشير هذا اللفظ إلى الهيئة التي نزل بها ما تقدم وصفه بأحسن الحديث فقد نزل الله بهيأة مكتوب وهنا ينبغي أن يوجد ما يكتب عليه وفي اللسان: (... فَاَلْكِتَابَ مَا يُكْتَبُ فِيهِ وَقِيلَ الصَّحِيفَةُ وَالنَّوْءُ) و((الكتاب ما يكتب فيه)) (16) كما أنه يفيد اشتماله على مسائل متحدة في الجنس (17). على ما جاء في الدلالة اللغوية التي لم تتعد عنها الدلالة القرآنية للفظ (الكتاب) وهذا الوصف لا ينطبق على القرآن الكريم الذي أنزل وحياً مفروقاً وآيات تتلى وليس مدوناً؛ قال تعالى: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكُثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) (الإسراء: 106). وتعد لفظة الكتاب القرآنية من الألفاظ التي اختلف العلماء في تحديد دلالتها. وهو أمر تكفل تفصيله

بحث مستقل للدلالة القرآنية للفظه الكتاب ؛ إلا أننا يمكن أن نتصور وجود صحف عند رسول الله (ص) على غرار ما كان عند موسى (ع) من صحف وألواح الى جانب التوراة. يقتصر ما فيها على ذكر الحوادث التي ستقع في المستقبل، بخاصة أن هناك أحاديث نبوية كثيرة تتحدث عن الملاحم والفتن وما مرّ بالمسلمين، وما سيمرّ بهم حتى قيام الساعة. والتفاصيل في هذا المجال كثيرة عند مختلف المذاهب الإسلامية.

(٣)- متشابهها : وهي اللفظة التي عقد البحث للكشف عن دلالتها القرآنية، وسبق القول أنها تعني المشابهة في الصورة والهيئة الخارجية المرئية؛ ولما كان من خصائص القرآن أنه لا اختلاف فيه؛ إذن فسيكون لكل لفظة قرآنية دلالة واحدة تصحبها أينما استعملت في القرآن؛ وذلك للدليل الذي تتضمنه الآية من قوله تعالى: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (النساء 82) إذ إن تعدد الدلالة للفظه الواحدة بين مورد وآخر هو من الاختلاف المنفي بصريح الآية، فعلى ما سبق يكون أحسن الحديث: كتابا يشبه بعضه بعضا فأقسامه وآياته يشبه بعضها بعضا في هيأتها وصورتها .

(٤)- مثاني: مثنان جمع مثنى، ولم تستعمل هذه اللفظة في غير هذا المورد، ويساعدنا في تحديد دلالتها أن القرآن استعمل المفرد منها وهو (مثنى) غير المعرف بـ (أل) في ثلاثة موارد هي قوله تعالى :

= (فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ...) (النساء ٣)  
= (قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيَكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفِرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) (سبا 46).

= (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنْ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (فاطر ١). ويبدو واضحاً أن الدلالة القرآنية للفظه (مثنى) هي: الإثنان أو الاثنان مجتمعان سوياً !. وهذه الدلالة لـ (مثنان) النكرة مع دلالة الجمع فتكون دلالتها على ثنائيات متعددة ومجموعة معاً. على ذلك فإن أحسن الحديث مشتمل على أجزاء أو كلمات مكتوبة بصورة مكررة في ترتيب ثنائي كل شيئ منها سوياً. إن اجتماع الوصفين في هذا الكتاب أعني: (متشابهها مثاني) يضعنا بازاء كتاب يشبه بعضه بعضا مرتب على هيئة مكررات ثنائية؛ وبذلك فهو كتاب ذو نمط غير مألوف من التأليف وذكر الأحداث. وكأن هذا ألفاظ هذا الكتاب قد صيغت على وفق نظام للتشفير، ولما كان ما فيه من أمور الغيب، وتتشعر لها الجلود، فيكون (الكتاب) اشتمل على الأحوال التي ستحلّ على الأرض، ومصائب المؤمنين، وما سيبتلون به. وذلك بقودنا لقول بأن الآية ليست بصدد ذكر صفات القرآن الكريم ، بل هي تذكر كتابا إلهيا هذه هيأته، قد يكون من جملة اللوح الحفوظ، أو هو الكتاب الذي كتب الله فيه حوادث الدنيا الى انقضائها بكل تفاصيلها مما لا يعلمه غيره إلا من ارتضى، وكأن هذه الطريقة فيها ما فيها من أسرار يمكن أن يختزل بها كمية هائلة من المعلومات. وقد جاء استعمال لفظه كتاب في موارد كثيرة، منها ما جاء في قوله تعالى:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (هود ٦) ويظهر الربط هنا مع (تأويل الأحاديث) في ذكر لفظة رزقها هنا وهي التي ذكر الفعل منها (ترزقانه) على لسان يوسف (ع) مخاطبا صاحبيه، ومن هنا فنقترب من القول في دلالة لفظة (المثاني) القرآنية الواردة في القرآن في مورد وحيد وذلك قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) (الحجر 87) للدلالة على جنس من الكتب الإلهية التي تم نسجها بطريقة خاصة هي نفسها الطريقة التي نسج عليها (كتاب أحسن الحديث) الذي نحن بصدد. فأيات هذه الكتب رُتبت على هيئة تجمعات ثنائية مكونة من آيتين آيتين، أو لفظتين لفظتين، أو حرفين حرفين بحسب ما يمكن أن تحتويه هذه الكتب المثانة؛ ما يعني أن الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) قد أوتي سبع كتب من هذا الجنس، وأُفرد عنها (القرآن الكريم) لما بينه وبينها من تمايز مع وصفه بـ (العظيم) التي تظهر كون القرآن أرفع مكانة مقارنة بهذه السبع من المثاني. وذكر القرآن في هذا السياق عطفاً على (سبعا) يعضد الناحية الكتابية لهذه السبع. ويظهر أن الحرف الجر (من) ذكر لبيان جنس هذه السبع لا لدلالة التبعية إذ لا دليل يؤكد وجود كتب أخرى لها الهيئة نفسها من التأليف ونسج الآيات ويبدو أن هذه الكتب الإلهية من مختصات النبوة التي يخصها الله تعالى نبيه الكريم ، لأنه لم يجر تداولها ، وفي السنة النبوية الطاهرة المروية من طريق أهل البيت ومن طريق بقية أصحابه في كتب أهل السنة من أمور الغيب وحوادث الزمان وآخره وكلام الله المروي في الأحاديث القدسية ما يمكن أن يفهم أنه قد تم أخذه عن الله تعالى من هذه الكتب، ولا يمنع أن يطلع رسول الله بعض أصحابه وأهل بيته على ما فيها، وذلك هو صريح تكملة الآية كما في الفقرة ذي الرقم (5) الآتية. مما تقدم ظهر البون الشاسع بين هذه الدلالة التي توصلنا إليها، وما ذهب إليه المفسرون من تفسير السبع المثاني التي اختلفوا في المراد منها على آراء كثيرة ذكرها مختصرة صاحب لسان العرب في كلامه عن المادة (تنى) (18)، ومن تلك الآراء: سورة الحمد وأنها سور القرآن لكونها تنتهي على مر الأوقات وتكرر فلا تدرس أو أنها السور السبع الطوال. وأيضا قولهم في وصف كتاب بـ (مثاني) لما يثنى وتتجدد فوائده جالاً بعد حال. (19) (٥) تَشْعُرُ مِنْهُ الْجُلُودُ: قوله تعالى: (..تَشْعُرُ مِنْهُ الْجُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ..) يتعلق هذا الوصف بالجماعة المؤهلة للاطلاع على هذا الكتاب، واستيعاب ما قد تهول المرء معرفته؛ إذ الجلود تقشر لدى سماعها آيات بهذا المعنى مثلما يهولها ما تسمعه من آيات الوعيد، ومواقف الحساب، وعظمة بعض الأقدار، ومجريات الإبتلاء وضيق الدنيا على المؤمنين على رحبها؛ مما جاءت به بعض آيات القرآن الكريم؛ لكن جانباً واسعاً من آيات القرآن تنحو الى تنظيم جوانب حياة الإنسان الاجتماعية والاقتصادية والثقافية من قبيل آيات النكاح والميراث والزكاة والخمس وذكر ما أحل من الطيبات والجنات ونعيمها. وهو مالا وجه لأن تقشع الجلود عند قراءتها أو سماعهم؟! ولا يعني ذلك التوهين من مقام هذه الآيات الكريمة فلكل من الآيات عظمتها على المستويين العقلي والعاطفي، ولها الإعجاز الإلهي المتعدد الجوانب. إلا أنني أريد التأكيد على أن الوصف المذكور في الآية موضع البحث لكتاب ليس المقصود به (القرآن الكريم) بل هو ما سبق ان ذكرته في الفقرة السابقة. لقد تم الربط بين (الذين يخشون ربهم) الواردة في الآية وبين الغيب في آيات أخرى الأمر الذي يعضد خصوصية ما يطلعهم الله ورسوله عليه؛ قال تعالى: (...إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ...) (فاطر ١٨)، وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) (الملك ١٢). ويرد لفظ (ربهم) لإظهار طبيعة علاقتهم مع الله تعالى إذ تؤسس على إحساسهم بالواجب الأخلاقي، واعترافهم بنعم الله لا على الخوف من القدرة والعظمة الإلهية التي يدل عليها لفظ الجلالة (الله) فتكون عبادتهم له (أو

خشيتهم الله) نابعة من منطلق (عبادة العبيد)؛ بل هي عبادة الأحرار التي يدل عليها قول الإمام علي (كرم الله وجهه): (ربي ما عبدتك خوفاً من عذابك أو طمعاً في جنتك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك). مع ملاحظة أن مظهر الخشية عند اطلاعهم على ما فيه هذا الكتاب ينحسر ههنا، ليبدا عليهم مظهر السكينة بذكر الله، هو اللفظ الدال على الألوهية المطلقة لله تعالى .

#### أقرب الأمثلة:

إن أقرب صورة إلى الأذهان يمكن أن نمثل بها طريقة نظم هذا الكتاب الموصوف بـ(متشابهة مثنائي) من واقع حياتنا المعاصرة -هو ما وصلت إليه تكنولوجيا المعلومات، لاسيما التقنية الرقمية التي يقوم عليها نظام الحاسب الآلي (الكومبيوتر) إذ تستطيع تخزين كمية هائلة من المعلومات لا تستوعبها إلا مئات الآلاف من الكتب المطبوعة! ولا يتعد مكان ذلك التخزين بضعة سنتمترات أو أقل من ذلك؛ علماً أنه يستند على نظام كهربائي يرمز له برقمين (01) يكرران (010101) فالرقم (0) يرمز لعدم وجود تيار كهربائي، و يرمز (1) لمرور التيار الكهربائي. ويتكرر هذا النظام في خلايا التخزين ملايين المرات و سمي هذا بالنظام الرقمي. ومن هنا نرى أن حياة (01) رمزان افتراضيان يتكرران على صورة ثنائيات متشابهة. ومثلما للحاسب الآلي ما يناسبه لاستخراج تلك المعلومات المخزونة، فإن لهذا الكتاب الإلهي مفاتيح تناسبه لاستخراج ما فيه من معلومات، قال تعالى: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (الأنعام: 59)

#### المبحث الرابع: آيات الكتاب: محكمات ومتشابهات

تقدم في ما سبق القول بأن لفظة (متشابهات) ذكرت مرة واحدة في القرآن وجاءت وصفا لضرب من آيات الكتاب\_ يضمها قسم منه\_ مع ضرب آخر هو (آيات محكمات) وقد قلنا فيما تقدم: إن متشابهات (يعني أنها آيات يشبه بعضها بعضاً)؛ وهي سياق الدلالة نفسها لـ (متشابه) التي ظهرت في الاستعمال القرآني لهذا اللفظ.

#### أولاً: آيات متشابهات :

قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (آل عمران ٧-٩) ابتدأت سورة آل عمران بما عرف بالحروف المقطعة، وهي مكونات حرفية ظهرت في بدايات طائفة من السور القرآنية، وقد أعقبها في الآية الثالثة ذكر (الكتاب) وهذا الاقتران ما بين هذه الآيات التي تتكون من الحروف المقطعة وبين الكتاب سيظهر جلياً في أكثر الموارد التي جاء فيها ذكر هذه الحروف ؛ ولنا وقفة مفصلة عند هذا الاقتران في بحث آخر في الدلالة القرآنية للفظ الكتاب. وأعقب ذلك ذكر الكتب السماوية التي أنزلت من قبل: وهي التوراة والإنجيل والفرقان، ثم ذكر قدرة الله بأنه لا يخفى عليه شيء، وهو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء. ومن بعدها جاءت الآية مدار البحث وهي الآية السابعة من سورة آل عمران، ونصت الآية على أن (الكتاب) الذي أنزله الله تعالى فيه قسم من الآيات هي على نوعين هما :

١ - آيات محكمات هن أم الكتاب.

٢ - آيات متشابهات.

إذ يدل وجود (منه) متعلقاً بلفظة الكتاب، والعطف بالتشريك بين هذين الضربين من الآيات على كونهما من قسم واحد من الكتاب؛ ويعني ذلك أن هناك آيات أخرى يضمها هذا الكتاب غير هذه الموصوفة بالمحكمات والمتشابهات. وهي مسألة لم يذكرها المفسرون ممن اطلعنا على تفسيرهم لهذه الآية. لم ترد لفظة (محكمات) في غير هذا الموضع من القرآن الكريم، ولكن استعمل المفرد منها (محكمة) نكرة غير معرف بال أيضاً. وذلك في موضع واحد وصفا لـ (سورة) قال تعالى: (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ) (محمد ٢٠). استعمل القرآن الكريم مجموعة من ألفاظ هذه المادة (أي: حكم)، ولو تأملنا في دلالاتها لوجدنا الاستعمال القرآني حافظ على إطارها الدلالي اللغوي العام وهو: (الاتقان) أو (المنع من الفساد)؛ جاء في القاموس: (( أحكمه: أتقنه فاستحكم ومنعه عن الفساد)) (20) و ((منع منعاً لإصلاح)) (21) وعلى هذا فالحكيم فعيل من حكم الذي يضع الأشياء في مواضعها المانع من فساد متعلقها. وبهذا فآيات مُحْكَمَاتُ ببناء اسم المفعول: آيات متقنة ممنوعة عن الفساد، والتغيير الذي قد يسعى إليه بعض الناس لتحقيق مآربهم، وسميت هذه المحكمات بـ (أم الكتاب).

#### المحكمات أم الكتاب:

استعمل تركيب (أم الكتاب) في موضع آخر من القرآن وذلك في قوله تعالى: (يُحَوِّثُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) (الرعد ٢٩). ويظهر في الآية الربط بين فعلَي (يُحَوِّثُ) و (يُثَبِّتُ) مع أم الكتاب، وهو أمر جدير بالملاحظة لإبراز وظيفة هذه الآيات، ومن ثم تحديد طبيعتها، أو على الأقل تصوورها. فهذه الآيات التي عُبر عنها بـ (أم الكتاب) لها الهيمنة على مجمل ما ينزل من أمر الليل والنهار، وأرزاق العباد، وغير ذلك من التفاصيل الجزئية. وتتضح هذه الدلالة من سياق الآية إذ أتى بالواو لترابط الفعلين بما اختص الله به نفسه فقال (عنده). وتبرز هيمنة هذه الآيات على الحوادث عبر القدرة على التغيير في التفاصيل، مع كونها من جملة ما تفرّد الله تعالى بها، ولم يكل أمرها إلى غيره؛ وله تعالى أن يغيّر فيما كتب وقدر من حوادث الدنيا والآخرة. ولعل ما ذكره ذكر الرازي في الآية مما يفيد ذكره لتوضيح الدلالة القرآنية لأم الكتاب عبر الفعلين المذكورين في الآية، فقد ذكر فيها قولين هما: ((القول الأول: إنها عامة في كل شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ؛ قالوا: إن الله يحو من الرزق ويزيد فيه، وكذا القول في الأجل، والسعادة، والشقاوة، والإيمان والكفر، وهو مذهب عمرو بن مسعود. والقائلون بهذا القول كانوا يدعون ويتضرعون إلى الله في أن يجعلهم سعداء لا أشقياء، وهذا التأويل رواه جابر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)) (22). ومما جاء في تفسيره للمحو والإثبات: (( أنه تعالى يثبت في أول السنة حكم تلك السنة فإذا مضت السنة محيت، وأثبت كتاباً آخر للمستقبل، وذكر من الأقوال

الثامن: أنه في الأرزاق والمحن والمصائب يثبتها في الكتاب، ثم يزيلها بالدعاء والصدقة، وفيه حث على الانقطاع إلى الله تعالى. التاسع: تغير أحوال العبد فما مضى منها المحو وما حصل وحضر فهو الإثبات. العاشر: يزيل ما يشاء ويثبت ما يشاء من حكمه لا يطلع على غيبه أحدا فهو المنفرد بالحكم كما يشاء، وهو المستقل بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والإغناء والإفقار بحيث لا يطلع على تلك الغيوب أحد من خلقه)) (23) ؛ وأونوه إلى الفرق بين هذا ومسألة الإطلاع على الغيب الذي نصت القرآن على إمكان حدوثه لمن ارتضاه الله ؛ قال تعالى: □ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا \* إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا □ (الجن 26- 27). على ما تقدم فالآيات المحكمات (المسماة بأم الكتاب) تسلك مسلك المفاتيح المتحركة لإيقاع تلك التغيرات ومحو غيرها إن دلالة الهيمنة على بقية أجزاء الكتاب التي تدل عليها لفظة (أم) تعضد عبر تركيب قرآني آخر هو (أم القرى) الدال على مكة المكرمة (24) قال تعالى: ( وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ أَمْ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ) (الشورى ٧) وجاءت اللفظة في استعمال آخر عام لكل القرى بلفظ (أمها) في قوله تعالى: ( وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ) (القصص ٥٩). ولقد ذكر أهل اللغة: ((أم الشيء أصله)) (25) وتظهر تسمية (أم القرى) لمكة مكانة رفيعة، فلها الهيمنة الاجتماعية والدينية والاقتصادية على سائر من حولها من القرى؛ والتغيرات التي تحدث فيها سيكون لها صدى في بقية القرى، وهو ما أشارت إليه الآية (٥٩ من القصص) على نحو أكثر وضوحاً. على ذلك فإن مفاتيح التغيرات التي يسعى إليها الرسل (عليهم السلام) في مجتمعاتهم يكون في تلك القرية الأم للقرى التي من حولها، وبهذا فإن دلالة الأم في التركيبين (أم الكتاب وأم القرى) أنها الأصل لإحداث التغيرات المطلوبة فيما يتعلق بها. ولقد بدت هذه الدلالة واضحة فيما روي عن الإمام علي (عليه السلام) وهو قوله: ((ولولا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما كان، وما يكون، وما هو كائن إلى يوم القيامة؛ وهي هذه الآية: يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)) (26) ما يعني أن الإمام علي هو من جملة أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذين أطلعهم رسول الله على ما أطلعه الله عليه مما ذكر في الكتاب المتشابه، وجاء من الأحاديث ما يعضد ما مضى من دلالة الألفاظ من ذلك ما ذكره الحاكم النيسابوري بإسناده: ((عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قول الله عز وجل: (يمحو الله ما يشاء)؛ قال: من أحد الكتابين هما كتابان يمحو الله ما يشاء من أحدهما ويثبت وعنده أم الكتاب) أي جملة الكتاب)) وقال: ((قد احتج مسلم بحمد واحتج البخاري بعكرمة، وهو غريب صحيح من حديث سليمان التيمي ولم يخرجاه)). (27) وروي بإسناده ((عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، في قوله عز وجل: (يمحو الله ما يشاء ويثبت) قال: ينزل إلى السماء الدنيا في شهر رمضان فيدبر أمر السنة، فيمحو ما يشاء غير الشقاء والسعادة، والموت والحياة)) (28) وجاء ما يبين أن (أم الكتاب) خص نفسه تعالى بها كما تقدم في آية المحو والإثبات، وذلك في قوله تعالى: ( وَإِنَّ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَلِيلًا لِّعَلَّيْكَ حَكِيمٌ ) (الزخرف ٤) فلدينا متعلق بأم الكتاب كما كان (عنده) متعلقاً بالله في الآية المتقدمة وام يتعلق لدينا ليس بالضمير في (إنه) ولو كان متعلقاً به لقال: وإنه لدينا في أم الكتاب؛ وجاء من الأحاديث في تفسير آية المحو والإثبات ما يعزز الدلالة التي ذكرناها لأم الكتاب؛ من ذلك ما روي عن الفضيل بقوله: ((سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: (العلم علمان: علم علمه ملائكته ورسله وأنبياءه، وعلم عنده مخزون لم يطلع عليه أحد، يحدث فيه ما يشاء...)) (29) ، وذكرت بعض الأحاديث أن كل ذلك مكتوب عند الله في (كتاب)، وذلك ما ورد عن الصادق (عليه السلام) بقوله: ((إن الله تبارك وتعالى كتب كتاباً فيه ما كان وما هو كائن، فوضعه بين يديه، فما شاء منه قدم، وما شاء منه محأ، وما شاء منه أثبت، وما شاء منه كان وما لم يشأ لم يكن)). (30)

#### تمثيل العلاقة بين محكمات ومتشابهات:

بيّن البحث أن المحكمات تسلك مسلك المفاتيح لإيقاع الحوادث أو تغييرها بمعنى أن لها الهيمنة على بقية ما هو مذكور في الكتاب آيات الكتاب ومنها (آيات متشابهات)، أو ما سطر فيه من أخبار الحوادث، ويستطيع من يعرفها (وهو الله لا غير) أن يتحكم بمجمل ما في الكتاب الذي يبدو كأنه الكتاب الكوني؛ ومن يتحكم بما يقع من الحوادث أو لا يقع على الرغم من إخبار الله المجتبيين من عباده بوقوعها، ويظهر إنها من العلم الموقوف عنده سبحانه وتعالى. ولأجل تقريب المسألة إلى الأذهان نختار مثالا للعلاقة بين المحكمات وبقية ما في الكتاب، وذلك في بعض العمليات الرياضية ذات المتغيرات من نحو:

[س + ص = ع] أو [ع = س + ص] فقيمة (ع) ستحدد من خلال قيمتي (س و ص) أو (س + 5) ومعرفة قيمة (ع) لا يعني معرفة قيمة س و ص، وبمجرد تغير قيمة أحدهما سيؤدي ذلك إلى تغير في قيمة (ع)؛ زيادة على أن هذه المعرفة لا تعني القدرة على التحكم بقيمة هذه المتغيرات؛ فهكذا تكون بقية آيات الكتاب التي تشتمل على الحوادث والأرزاق وفيها القدرة لله على التغير، فإذا كان التغير فالمحكمات هي مفاتيح ذلك التغير في تلك الحوادث بما يشاء الله من المحو والإثبات، والتقديم والتأخير، مما تقدم ظهرت الدلالة القرآنية لمحكمات. أما الآيات المتشابهات فهي صفة للصورة أو الهيئة التكوينية الظاهرة للآيات فهي تشبه بعضها بعضاً، ويظهر أنه بها يتم اختزال تفصيلات الحوادث بطريقة قريبة من طريقة التفسير.

#### تأويل المتشابه :

عوداً إلى الآية السابعة من آل عمران، وقوله تعالى في شطر الآية الثاني:

(... فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ...) (آل عمران ٧) تأتي لفظة (زيغ) في القرآن الكريم لتشير إلى استقرار هذا الانحراف في قلوب هؤلاء؛ وخاصة مع تقدم الجار والمجرور (في قلوبهم)، وجاء في الآية التالية ما يبين أن الزيغ هو الضد من الهداية فقد قال تعالى: ( رَبَّنَا لَا تَزُرْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ) (آل عمران ٨)، إذ الفعل (هديتنا) هو الحالة الأسمى في العلاقة مع الله وهي منزلة كتكتسب بعد الإيمان والعمل الصالح كما في قوله تعالى: (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) (طه ٨٢). وإن البحث في دلالة هذا الفعل والألفاظ القريبة منه اشتقاقاً يحتاج إلى وقفة مستقلة؛ إذ به يكتمل الربط بين أطراف الشبكة اللفظية والدلالية لهذا المقطع من سورة آل عمران؛ وهو أمر لسنا الآن بصدد تتبعه.



والتأويل: هو القدرة على اظهار المعنى الحقيقي (الأول) لآيات هذا الكتاب؛ وبخاصة (ما تشابه منه)، وبهذه الدلالة جاءت لفظة تأويل في القرآن الكريم، ولو تتبعنا استعمالات هذه اللفظة في القرآن الكريم ومنها ما جاء في سورة يوسف في (تأويل الأحاديث) فإنها تشير الى دلالة هي القدرة على إظهار المعنى أو الدلالة التي أرادها الله تعالى في آياته القرآنية؛ ولذا كان تأويل الأحاديث على معنى القدرة على معرفة لما سيقع من حوادث في المستقبل من الزمان. ومن تمام هذا البحث أن يفرد بحث مستقل في الدلالة القرآنية للفظ (تأويل) إذ هي من الألفاظ الواردة في الآية (7) من سورة آل عمران، وذلك ما عملت على إنجازه، وهو قيد النشر.

### روافد بحث: المتشابه والمحكم في القرآن الكريم (بحث في الدلالة القرآنية للألفاظ)

القرآن الكريم .

الاحتجاج / لأبي أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (القرن السادس) / انتشارات المكتبة الحيدرية / الطبعة الأولى / 1425 هـ .  
أصول التفسير والتأويل / كمال الحيدري / دار فراق / مطبعة أستانة / إيران / الطبعة الثانية / 1427 هـ - 2006 م.  
البرهان في تفسير القرآن / هاشم البحراني / حققه لجنة من المحققين / مؤسسة الأعلمي للمطبوعات / بيروت / الطبعة الأولى / 1419 هـ - 1999 م.

شعب الإيمان / أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي الحافظ / الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع / قرص المكتبة الشاملة.  
الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها / أحمد بن فارس / تحقيق: مصطفى الشويمي / مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر / بيروت / الطبعة الأولى / 1964 م - 1383 هـ .

علوم القرآن / محمد باقر الحكيم / مجمع الفكر الاسلامي / الطبعة الثالثة / / المطبعة : مؤسسة الهادي / قم / 1417 هـ . ق.  
القاموس المحيط / الفيروز آبادي / دار الفكر / بيروت / 1403 هـ - 1983 م .  
لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري / نشر أدب الحوزة / قم / إيران / 1405 هـ - 1363 هـش.

مجمع الأمثال / أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني / دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع / بيروت / 1415 هـ - 1995 م.  
المستدرك على الصحيحين / للحاكم / الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع / قرص المكتبة الشاملة.  
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / محمد فؤاد عبد الباقي / منشورات ذوي القربى / مطبعة أميران / إيران / الطبعة الثانية / 1423 هـ - 1381 هـش.

مفاتيح الغيب / أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي / الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع / قرص المكتبة الشاملة.  
مفردات ألفاظ القرآن / لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني (ت 425 هـ) / تحقيق صفوان داودي / نشر طليعة النور / الطبعة الأولى / إيران / 1426 هـ .

وطبعة أخرى من : إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي بيروت ط ٢ / ١٤٢٤ - ٢٠٠٣ .  
مفهوم الجملة عند سيبويه / د. حسن عبد الغني الأسدي / نشر: دار الكتب العلمية / بيروت / الطبعة الأولى / 1428 هـ - 2007 م .

### الهوامش:

- 1 - ينظر: مفهوم الجملة عند سيبويه: 18-19 وقد أتاحت دراسة الدكتوراه للباحث فرصة تطبيق هذا المنهج في إعادة قراءة كتاب سيبويه وكانت النتيجة مثمرة، إذ تمت قراءة الكتاب بوصفه مدونة لها استقلالها عن الآراء اللاحقة التي تحكمت بفهم كلام سيبويه طوال القرون المنصرمة .
- 2 - لسان العرب : ١٦/٨ مادة شبه والمثل هو شطر بيت شعري، وينظر: مجمع الأمثال: 333/2.
- 3 - لسان العرب : ١٧/٨ مادة شبه والآية (الأنعام 99) وهي قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).
- 4 - ينظر الصاحبي في فقه اللغة : ٢٢٣ .
- 5 - لسان العرب : ١٧/٨ مادة شبه
- 6 - لسان العرب : ١٧/٨ مادة شبه
- 7 - مفاتيح الغيب (تفسير الرازي): 4/106. وذكر ابن منظور مثل ذلك في مادة (شبه) .
- 8 - ينظر : علوم القرآن : ١٩٦ وما بعدها ، أصول التفسير والتأويل : ٢٤٦ وما بعدها .
- 9 - ينظر : أصول التفسير والتأويل : ٢٥٨ (القول الثالث عشر) .
- 10 - علوم القرآن : ١٩٤ - ١٩٥ .
- 11 - لسان العرب : ١٧/٨ مادة شبه .
- 12 - البرهان في تفسير القرآن : ١٥٥/١ .
- 13 - لسان العرب : ١٨/٨ مادة (شبه)
- 14 - لسان العرب : ١٨/٨ مادة (شبه)

- 15 - لقد وقع أغلب المفسرين في الالتباس عندما تصوروا أن (تأويل الأحاديث) هو (تأويل الرؤيا) الذي امتاز به نبي الله يوسف (عليه السلام). بيّنت الآية أنّ الذي علّم الله تعالى يوسف يفوق بكثير تأويل الرؤيا كما هو واضح. وقد أفردت بحثاً خاصاً في الدلالة القرآنية للفظ التأويل تناولت فيه (تأويل الأحاديث).
- 16 - تاج العروس مادة (كتب) ج 2
- 17 - ينظر الفروق اللغوية: 446 و 447.
- 18 - ينظر: لسان العرب: مادة (ثنى)
- 19 - ينظر المفردات في غريب القرآن: ١٧٩
- 20 - القاموس المحيط: مادة حكم .
- 21 - مفردات ألفاظ القرآن: ٢٤٨.
- 22 - مفاتيح الغيب (تفسير الرازي): 65-64/19.
- 23 - مفاتيح الغيب (تفسير الرازي): 65/19.
- 24 - ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: ٨٥.
- 25 - اللسان: ١٥٩/١ مادة (أم): قال: ((قال الخليل: كل شيء ضم إليه سائر ما يليه يسمى أمّا))، وينظر: العين: ٩ ٨ مادة (أمم) ، ومفردات ألفاظ القرآن: ٨٥ ، و.
- 26 - الاحتجاج ٣٤٠/١.
- 27 - المستدرک على الصحيحين للحاكم: 472/7. تفسير سورة الرعد.
- 28 - شعب الإيمان للبيهقي: 178/8.
- 29 - البرهان في تفسير القرآن ٢٩٣/١٤.
- 30 - البرهان في تفسير القرآن: ٢٩٣/١٤ - ٢٩٤.